دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	سيكولوجيا الجماهير الثائرة : قراءة من منظور التحليل النفسى وعلم نفس الجموع
المصدر:	مجلة المنبر القانوني
الناشر:	إدريس كركين
المؤلف الرئيسي:	حوكا، بن أحمد
المجلد/العدد:	ع2,3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2012
الشهر:	أكتوبر
الصفحات:	269 - 281
رقم MD:	767110
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	الثورات، سيكولوجيا الجماهير الثائرة، التحليل النفسى، علم نفس الجموع
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/767110

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

سيكولوجيا الجماهير الثائرة:
قراءة من منظور التحليل النفسي وعلم نفس الجموع

الأستاذ بن احمد حوكا

باحث في العلوم الاجتماعية

تشكل الحركات الاجتماعية الثورية موضوعا ممتدا للعديد من العلوم الاجتماعية حيث يمكن الحديث عن الاقتصاد السياسي لهذه الحركات، عن تاريخها وجغرافيتها وكذا نفسانياتها واجتماعياتها. غير ان الاطلاع على الأدبيات العلمية في هذا الشأن يسمح بالتوقف عند استحواذ علم الاجتماع على هذه الموضوعات وذلك بالنظر إلى تعبيرها عن الديناميات الجمعية التي تخترق المجتمعات عبر إيقاعات متغيرة وتأثيرها في مسار التحولات الاجتماعية للشعوب .

والملاحظ ان المساهمات التي تنتمي اصلا إلى حقل علم النفس، ينكب دارسو الفكر السوسيولوجي على دمجها وتصنيفها داخل المؤلفات الخاصة بسوسيولوجيا الحركات الاجتماعية.

بالطبع لا نقصد من وراء هذا القول وضع حواجز عازلة بين علوم المجتمع، فقد اضحى التكامل المعرفي مطلبا يفرضه الطابع الكلي والمتشعب للموضوع. ولكن يتعين الانتباه إلى دور تاريخ الاستحواذ الابستملوجي على الموضوعات في انتساب الظواهر إلى حقول المعرفة. فقد ارتبط ميلاد السوسيولوجيا بالجمعي مثلما ارتبط علم النفس بالديناميات النفسية للأفراد. وحين يتعلق الأمر بظاهرة جمعية كالحركات الثورية، ينتفي الفرد من الاهتمام ليدخل عالم الجمهور وينتمي بذلك إلى محاور البحث في علم الاجتماع. وحيث إن العلاقة بين العلوم وموضوعاتها هي في اصولها علاقة تعسفية لا تكتسي المشروعية إلا بالتراكم والاعتراف وإن الطابع المعقد للحركات الاجتماعية صعب الاختزال، فإن حصر ما هو جمعي في المنظور الجمعي ليس سبيلا، كما كان يظن دوركهايم، إلى المعرفة الحقيقية.

وبالرغم من الارتباط التاريخي لعلم النفس بالميكانزمات السيكولوجية الداخلية، فإن ظاهرة الحركات الثورية منظورا إليها كصيرورة لطاقات انفعالية جمعية، تشكل حقلا واعدا للدراسات السيكولوجية وتجعل الخطوط الفاصلة بين الفرد والمجتمع وعلومهما، خطوطا باهتة للغاية.

فأن يكون التسلط او الفقر او العوامل الاقتصادية والديمغرافية. .. الخ، متغيرات فاعلة في تشكل الحركات الاجتماعية الثورية، فذلك غير كاف لتفسير ظاهرة الثورة. ذلك ان العوامل الذاتية التي تتحدد في الطريقة التي يعي بها افراد المجتمع شروط وجودهم الاجتماعي، تحدد اكثر من العوامل الموضوعية، مدى قابلية البنيات الذهنية للتغيير الاجتماعي العنيف. ويشهد التاريخ الاجتماعي للشعوب على تعايش الفقر المدقع مع استبداد فظ لأسباب ترجع إلى تأخر محتويات افعال المعرفة لدى افراد المجتمع، اضف

إلى ذلك ان الثورة هي لحظة سيكولوجية بامتياز كما سنتناول ذلك لاحقا من خلال اعمال س. فرويد وك. لوبون.

إن استنفار علم النفس لفهم التحولات الاجتماعية والسياسية يتطلب مقومات معرفية ومادية تسمح بالاشتغال على عينات واسعة من الجماهير في شمال إفريقيا وبعض دول الشرق الأوسط، وذلك قصد الوقوف على الارتباطات الكامنة بين السلوك الثوري والمتغيرات السوسيوديمغرافية.

وعلى سبيل المثال يعتقد T. Gurr في مؤلفه الموسوم : لماذا يتمرد الناس، بأن الثورة تصبح ممكنة حينما ترتفع درجة الحرمان النسبي عند افراد المجتمع ؟ وفي حال ما إذا اعتبرت هذه الأطروحة خلفية نظرية للبحث الأمبريقي، يمكن لاستجواب مركز مع الجماهير ان يسمح بالتعرف على دور الحرمان المتصاعد في تفسير الحركات الثورية. ومن الممكن ايضا استعمال مقاييس متعددة توصل الباحثون إلى بناء هياكلها وتأكيد فعاليتها على عينات واسعة من المبحوثين. غير ان استعمال ادوات القياس هذه وتحليل نتائجها يثير مشاكل عويصة على مستويات مختلفة. ذلك أن الحالة النفسية للمبحوث الخاضع لرقابة الوعي في الوضعيات الاعتيادية تختلف اختلافا جذريا عن الحالة التي يضحى عليها وهو ينتمي إلى الجمهور. وحينما نقول إن الثورة هي لحظة سيكولوجية، فإن العبارة تحيل على الآليات الوجدانية التي تجعل من التجمع من اجل الاحتجاج امرا ممكنا.

من الناحية العملية، يمكن فهم الثورة كسيرورة طويلة تبتدئ بالتفاعل بين المؤثرات الموضوعية وبنيات الوعي عند افراد المجتمع، وتمر عبر تشكل اللبنات النفسية الأولية للفعل الجمعي مع ما يقتضي ذلك من انخراط تدريجي للشرائح الاجتماعية على إثر وجود شرارة معينة، لينتهي الأمر في الأخير إلى ذوبان الشخصية الواعية للأفراد في تركيب سيكولوجي جديد يدعى بالجمهور النفسي. وتوجه هذا الجمهور، الذى يتمتع بخصائص مختلفة تماما عن الكيفية التي يتحرك بها الأفراد وهم معزولين، نحو تحقيق اهدافه، هو بالضبط ما يشكل ما يسمى بالثورة. وبناء على ذلك، فإن فهم مجريات هذه الأخيرة، وافعالها، ووقائعها وومضاتها يمر قسرا عبر ضرورة استيعاب نفسية الجماهير الثائرة. وتتعين الإشارة إلى ان هذه النفسية ليست مجرد وسيط او مجرد اثر للعوامل الموضوعية، ولكنها تمتلك منطقها الخاص في بناء دينامياتها الداخلية. ويبدو واضحا بأن المبدأ الاثنومتودولوجي لكار فنكل، الذى ينصح الباحثين بتتبع الظواهر الاجتماعية وهي تتشكل، يشكل في الواقع منهجا مهما لفك الغاز الأحداث الثورية. فالثورة في جاهزيتها المتسارعة كحدث اتى اكله، تعكر صعوبات فهمها مزاج الباحثين. لذلك يكون تتبع تفاصيلها الدقيقة والوقوف على تراكماتها الجزئية، الكمية والكيفية، كفيلا بإزاحة الإبهام الذى يغلفها ويضفي عليها طابع ذلك الحدث الذى ما كان ليحدث لولا ظروف معينة.

إلا ان الملاحقة السيكولوجية للحدث الثوري بهذا الشكل امر غير ممكن من الناحية العملية، نظرا للحتمية الزمانية والمكانية للذوات العارفة. وفي غياب الإمكانيات والوسائل الكفيلة بإجراء القياسات النفسية على هذه الجماهير العريضة، يبقى البحث في سيكولوجيا الجماهير الثائرة محدودا لا محالة بالنظر إلى محدودية اقتصاديات العلوم في بلداننا. لذلك، سوف نحاول معالجة الموضوع من زاوية لا تخلو مع ذلك من اهمية، من خلال توظيف المعطيات العلمية التي توصلت إليها بعض المؤلفات الكلاسيكية في علم النفس الاجتماعي. وسوف نعمل على قراءة سيكولوجيا الثوار من زاوية مطابقتها او ابتعادها عن النموذج المثالي الذى رسمه كوستاف لوبون عن الوحدة العقلية العامة للجماهير الثائرة. وسننهي هذه المحاولة المتواضعة بتوظيف التحليل النفسي في تفسير بعض الجوانب النفسية المرتبطة بعقدة اديب وقتل الزعيم الذى كان يستبد ليس فقط بنساء العشيرة ولكن بالخيرات الاقتصادية والسياسية لبلد بأكمله.

يعد كتاب لوبون الموسوم "سيكولوجيا الجموع "والذى صدر سنة1895 ، اول دراسة تنقل علم النفس من الاهتمام بالفرد إلى إمعان النظر في الجماهير. وقد كان لها وقع لا مثيل له في عالمي السياسة والعلم لدرجة ان هذا المؤلف جعل من ك. لوبون مدرسة فكرية وعنوانا بارزا لمرحلة بدأت تعرف تصاعدا ملحوظا للظاهرة الجماهيرية. وقد حاول من خلاله دراسة الخصائص السيكولوجية المميزة لما يدعى بالجموع .

ومن خصائص هذا القانون : ذوبان الشخصية الواعية للأفراد وتوجيه افكارهم ومشاعرهم في اتجاه واحد فور بدء الجمهور النفسي في التشكل. والحق ان هذا التركيب النفسي الجمعي لا يتطلب، خاصة في الوقت الراهن، تواجدا فيزيقيا متزامنا للعديد من الأفراد في ميدان واحد. إذ يمكن لآلاف الأفراد المنفصلين، اكتساب صفات الجمهور النفسي في لحظات معينة تحت تأثير حدث وطني او قومي كبير. وحين يتجمعون، تتخذ تصرفاتهم طابع السلوكات الجماهيرية.

وقد اتضح من الأحداث الثورية الأخيرة، الدور الذى لعبته وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي في خلق جمهور نفسي غير مرئي استقطب شعوبا بالآلاف كما هو الحال في مصر وتونس واليمن والمغرب. وبينما يجتمع هؤلاء، تتشكل طاقة انفعالية هائلة لا يمكن بأي شكل من الأشكال، ثنيها عن المضي قدما في مسيرتها.

وتتجلى الميزة الثانية لقانون الوحدة العقلية للجمهور، في قدرته على طمس جميع الاختلافات التي تكون بين الأفراد على مستوى طبائعهم، وذكائهم واهتماماتهم، واستبدالها بروح جماعية تجعلهم يفكرون ويتحركون بكيفية مختلفة عن حالاتهم الواعية حينما يكونون معزولين.

إن الجمهور منظورا إليه من الزاوية السيكولوجية، ليس مجموعا حسابيا لمكوناته، ولكنه تشكيل مغاير يتمتع بخاصيات جديدة. ومع ان لوبون كان عالم اجتماع، إلا انه كان سباقا إلى توظيف مفهوم اللاشعور في فهم طبيعة الجمهور النفسي الذى يشتغل برايه وفق نمط جمعي لاشعوري، حيث تنحل قدرات الأفراد العقلية في ضوضاء الروح الجماعية ويأتون بسلوكيات ما كانوا ليقدروا عليها في الحالات الاعتيادية.

ومن خصائص قانون الوحدة العقلية ايضا، ان ما يفقده الجمهور من حس نقدى يستعيض عنه بالقوة التي يمتلكها او على الأقل بالقوى التي يشعر انه يمتلكها. وهذا يجعله معرضا لانفلات الغرائز من عقالها، فيأتي على اعمال عنيفة ومدمرة. ويستقي هذا العنف الجماعي مصدره حسب ك .لوبون من كون الجمهور النفسي مغفلا بطبعه، فالإحساس بالمسؤولية الذى يردع الأفراد ينتفي في مثل تلك الظروف .

يشبه لوبون حالة الفرد المتجمهر بالشخص المنوم مغناطيسيا، حيث يشل الوعي وتستيقظ الديناميات اللاواعية وتضحى ملكات الفهم والتمييز معطلة. ولا يتصور وجود جمهور بدون زعيم رمزي. ويصف العلاقة بينهما بأنها من طبيعة دينية وتنويمية. ويقول في هذا الصدد إن عاطفة الجماهير سواء ارتبطت بإله او صنم او بطل او بقضية سياسية مثالية، تبقى دائما ذات جوهر ديني. فالإنسان في نظره لا يكون متدينا فقط عن طريق عبادة الإله، ولكنه يكون ايضا كذلك حينما يضع كل طاقاته الوجدانية وكل إرادته في خدمة قضية يؤمن بها رفقة اقرانه. ويعتقد بأن هذا العنصر الديني الثابت في الجهاز النفسي للجماهير الثائرة هو ما يفسر تعصب الجماهير واعتقادها المطلق بصواب افكارها وسلوكاتها وختم ما يخالفها بأنها اخطاء مطلقة لاحق لها في الوجود. وفي هذا المناخ النفسي والمعرفي، يمكن ان نفهم على سبيل المثال مصير من يجاهر بالاعتراض على القضايا المقدسة لبعض التجمعات وايضا مصير اللص الذى تتمكن منه الجماهير في الأسواق العمومية. . .

إن العواطف الصادرة عن الجمهور النفسي في سيكولوجيا لوبون مضخمة وبسيطة في آن واحد:

مضخمة لأنها مؤسسة على الشعور بالقوة، وبسيطة لأن ملكة الفكر والتروي معطلة عند الفرد المنخرط في الجمهور. فالقدرة على التمييز بين الأمور الدقيقة تجعلهم ينظر إلى الأشياء بسطحية مفرطة. هكذا يقول المؤلف، ويضيف بأن الأبله والجاهل والحسود يتحررون من الإحساس بدونيتهم وعدم كفاءتهم، ويصبحون معبئين بقوة عنيفة ولكن هائلة وفي الغالب شريرة .

تشكل هذه العناصر التي قدمناها باقتضاب، الصورة العامة التي رسمها عالم الاجتماع الفرنسي عن سيكولوجيا الجماهير المنتفضة. وهي الصورة التي تؤكد توجسه من ولوج الطبقات الشعبية إلى

الحياة السياسية مع سقوط الإقطاع وبزوغ فجر الديمقراطية. فلوبون يخشى من ان الحضارة التي اقيمت على اكتاف الارستقراطيات القليلة العدد، قد تكون مهددة في جميع اللحظات من طرف القوة التدميرية للجماهير المغفلة. لأن سرعة تأثر الجماهير وسذاجة تفكيرها وقابليتها للتحريض بسهولة فضلا عن انتهازية زعمائها وعدم نبل اهدافهم، كل هذا يجعل الجماهير في نظر لوبون، قوة غاشمة قادرة إثر الانفلات من قيود العقل، على تحطيم الحضارة .

لقد اضحت افكار لوبون حول نفسية الجموع مرجعا اساسيا للعديد من الشخصيات العلمية والفكرية والسياسية التي ظلت تتعاقب على زيارته حينما لزم مترله بعد تجاوزه السبعين من عمره. وكان رجال السياسة يستمعون إلى نصائحه في مجال السياسة والمجتمع. وقد وجدت النخب الديمقراطية في مفاهيمه العلمية تأكيدات صريحة تبرر خوفها من الجماهير، كما رات فيها ايضا مجموعة من القواعد التي تساعدها على التحكم في عنفها والسيطرة عليها. وقد انقسم موقف المثقفين من مؤلف لوبون انقساما واضحا، فبينما يعتبر المفكرون الليبراليون الكتاب فتحا علميا عميقا يلبي حاجة تاريخية لفهم عصر الجماهير، لم يتردد مفكرو اليسار باتهامه بالرجعية والوقوف بجانب التسلط ولا سيما بعد ان انتشر بأن موسوليني وهتلر كانا من قرائه.

إن الصورة العامة التي رسمها لوبون للانتفاضات الشعبية والثورية والكيفية التي استطاع من خلالها وصف ميكانزمات اشتغال الجمهور النفسي، وإن اثارت انتقادات لاذعة من لدن إيديولوجيي الحركات الثورية، تتمتع بمصداقية علمية في حدود معينة. إذ يتعين على الملاحظ، والمفكر، والسياسي والإيديولوجي ان يميزوا بين ما يجرى فعلا في الوقائع الثورية، ويفصلوا فصلا دقيقا بين الصورة الحقيقية للتدفقات الانفعالية المفتوحة على كل الاحتمالات، وبين صورهم النرجسية عن ذواتهم الفردية والجماعية. فتاريخ الثورات يشهد على اعمال تدميرية في سبيل قضايا يتضح فيما بعد انها كانت زائفة وملفقة بالنسبة للشعوب التي ضحت بدمائها من اجلها.

غير ان ذلك لا يعني ان كل الحركات الثورية تنضبط بالنموذج المثالي الذى وضعه لوبون، فهذا النموذج يصدق بالدرجة الأولى على الانتفاضات الشعبية التي تفتقر إلى وجود اهداف واضحة وقضايا كبرى تكابد من اجلها. وقد عمد لوبون إلى إقحام استثناء يخلخل مبدا التعميم الذى وظفه في قراءة الجماهير الثورية، ويتعلق بقدرة الجماهير الثائرة على افعال تضحية ونزاهة اسمى بكثير من تلك التي يقدر عليها الفرد الواحد. فوحدها الجماهير قادرة على تحقيق المآثر الكبرى والتفاني العظيم من اجل القضايا الحضارية العظمى. ونادرا ما تكون المصلحة الشخصية محركا قويا لدى الجماهير. وفي هذا السياق النفسي يمكن ان يتحول ذوو الطباع السيئة إلى مثال للبطولة والتسامي والقدرة على التضحية بالنفس، هكذا كتب لوبون.

وفضلا عن الطبيعة الدينية التي وسم بها الشحنات الانفعالية لدى الثوار، فقد استخدم ايضا مفهوم اللاشعور لتفسير ذوبان الشخصية الواعية للأفراد في الجمهور النفسي. إلا ان هذا المفهوم الذى يرتبط عند فرويد بالمكبوت، يكتسي عند لوبون اصلا عرقيا. فالعرق هو الخزان التحتي الذى تصدر عنه الروح الجماعية للجماهير كما يعلق على ذلك ج. طرابيشي في مقدمة ترجمته لمؤلف فرويد حول علم نفس الجماهير.

وبالرغم ان التوصيف يبقى هو الطابع العام الغالب على اطروحات صاحب علم نفس الجموع، وان العديد من الملاحظات التي ساقها بخصوص تحول الخريطة الواعية للأفراد لا تفسر ذلك الشيء الذى يربط بالضبط الأفراد بعضهم بعضا داخل الجمهور النفسي – وهذا جوهر النقد اللاذع الذى وجه له من طرف فرويد- فقد حاول لوبون وضع يده على بعض العلل معتقدا بفعاليتها في تفسير ظهور الصفات النفسية الجديدة والموحدة لدى مختلف عناصر الجمهور. ويتعلق الأمر بعدد الأفراد والعدوى العقلية ثم قابلية التأثر بالإيحاء. اما فيما يخص النفس الجماعية او التركيب السيكولوجي للجمهور، منظورا إليه كوحدة، فإن لوبون يماثل بصددها بين روح الجمهور والحياة النفسية للبدائيين والأطفال .

ينتقد فرويد بشكل قاس سطحية التفسير الذى استعمله لوبون لتحليل الروابط الوجدانية بين اعضاء الجمهور النفسي وذلك في مؤلف يحمل عنوان : (La psychologie collective et analyse de moi)وهو المؤلف الذى ترجمه ج. طرابيشي إلى اللغة العربية تحت عنوان "علم نفس الجماهير"، ولكن بالرغم من ذلك فهو يعترف له بفضله فيما يخص دقة توصيفه لسيكولوجيا الجماهير وفي تأسيس هذا الحقل المعرفي الجديد وإن كان يشاركه في ذلك اعلام كبار من قبيل سيغل وماك دوغال.

ويؤاخذ فرويد غريمه في طريقة تأصيله لمفهوم اللاشعور، متهما إياه بالوقوف عند الوصف. فما يميز الجمهور حقا هو تلك العلاقات التي تربط اعضاءه بعضهم ببعض. وذلك هو اصل ما ينبغي تفسيره فعلا. غير ان لوبون في نظر فرويد، يولي اهتمامه فقط للتحولات النفسية التي تخضع لها نفسية الفرد في الجمهور.

يقول فرويد :"حسبنا ان نقول إن الفرد في الجمع يجد نفسه في شروط تتيح له فك اسر ميولاته الغريزية. والصفات الجديدة التي يظهر بها ليست في الواقع سوى مظهرا لذلك اللاشعور الذى يختزن ما هو شرير في النفس البشرية " ص 28،29.

غير ان فرويد يعيب على سابقيه من امثال لوبون وسيغل، اقتصارهم على دراسة الجماهير العابرة في حين ان الحشود الثابتة من قبيل الجيش والكنيسة تنطوى على توكيدات قد تكون معارضة لما تم التوصل إليه او حاملة لتفسيرات جديدة بشأن ظواهر خفية في الجماهير العابرة .

يعتقد س. فرويد ان تشكل الجمهور النفسي بالخصائص التي وصفها لوبون، رهين بإلغاء جميع اشكال الرقابة التي يمارسها الفرد على نوازعه ؟ وهو ما يجعله مستعدا للتأثر عبر الإيحاء .

وإذا كان مفهوم الإيحاء نفسه يحتاج إلى تفسير، فقد عمل رائد التحليل النفسي على توظيف مفهوم الليبيدو (طاقة الميول والنوازع المرتبطة بما تعنيه كلمة الحب عموما، أي تلك الطاقة العاطفية التي تتحدد في الروابط الوجدانية) لفهم ذلك التماسك الذى يميز الجمهور النفسي.

وللاستدلال على فاعلية الطاقة الإيروسية، يعرج فرويد على الجماهير العسكرية والدينية موضحا طبيعة العلاقات الوجدانية التي تربط الجماهير بالقائد. ففي هذين الجمهورين يرتبط كل فرد بالزعيم وكذلك بسائر الأفراد بروابط ليبدوية متمثلة في علاقات الحب والاحترام والإخاء. فقوة الإيروس في نظره هو ما يفسر تلاحم الجمهور وانقياد الأفراد لإيحاءاته.

ويميز التحليل النفسي الفرويدى بين التجمعات العادية والجمهور النفسي وذلك من خلال حدة الشحنات الانفعالية والوجدانية التي تربط بين الأعضاء من جهة وبينهم وبين مبتغاهم من جهة اخرى :

ففي الحالة الأولى، ينتج عن التقارب الفزيقي لعدد غفير من الأفراد شعور بالقلق والضغط النفسي، يكون مصدرا لانفلات سلوكات عدوانية تجاه الآخرين، وكذا لأحاسيس الاشمئزاز والمقت الناتجة عن الاحتكاك المفرط. ويرجع ذلك في الواقع إلى تعرض المسافة الضرورية للتوازن النفسي لكل فرد في التجمعات العادية للانتهاك (E. Hall,1966)

إلا ان هذه الحساسيات المفرطة تجاه الضغوط المجالية والحشدية تختفي بصورة مدهشة في الجمهور النفسي، حيث يتحمل الأفراد تلك الضغوطات ولا ينتابهم أي شعور بالبغض تجاه رفاقهم. وليس ذلك في الواقع سوى نتيجة لكبت النرجسية الذاتية وتعويضها بارتباط ليبدوى بالجمهور. لذلك، فتماسك الجمهور النفسي يقوم على روابط وجدانية ويفترض حصرا معينا للأنانية النرجسية. وتتحدد هذه الروابط في ميول إيروسية يجرى تحويلها عن اهدافها الجنسية الأولية دون ان تفقد شيئا من طاقاتها القابلة للاستثمار في التفاني من اجل قضايا الفن والرياضة والسياسة والفكر. . .

ويكشف التحليل النفسي ايضا عن آليات أخرى تفسر اشتغال الروابط الوجدانية في الجمهور النفسي، ويتعلق الأمر بآلية التماهي ويقول في هذا الصدد: "إن الجمهور الأولي يبدو عبارة عن اجتماع أفراد استبدلوا جميعهم مثال اناهم بموضوع واحد وتماهوا بالتالي في اناهم مع بعضهم بعضا". ويمثل فرويد لهذه الصيغة بالرسم البياني الآتي (س. فرويد، ص97):

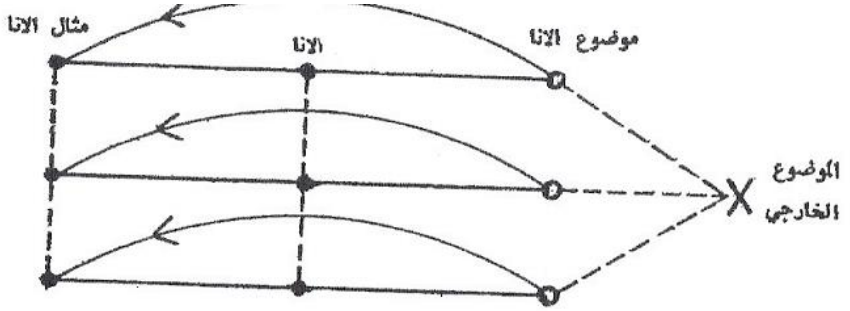

إن الاختلافات السياسية، العرقية والأيديولوجية الموجودة بين الأفراد المنخرطين في الجمهور النفسي سرعان ما تتلاشى عقب تعلق الجميع بالموضوع الواحد. فتشكل الحس الجمعي يرتبط بالانتقال من العاطفة العدائية البيذاتية إلى قبول الآخر والتسامح معه في شروط مجالية تثير الانتباه. وليس ذلك في واقع الحال سوى ضرب من ضروب التماهي.

ويبدأ الجمهور النفسي بالانحلال حينما تشرع الروابط الوجدانية المتبادلة في التمزق وتعلو الخلافات والاختلافات بين الأفراد. ويعزى ذلك في الغالب إلى انتفاء الموضوع الذى ظل يوحد وجهة الليبدو حتى هذه اللحظة واحيانا إلى تفاقم الخطر الذى يتوعد اعضاء الجمهور جميعا.

والحقيقة ان ظاهرة الذعر التي تدب قي الجماهير تشكل حدثا جديرا بالاهتمام، إذ يحدث أن يتشتت الجمهور النفسي لأتفه الأسباب او يبقى متماسكا مهما بلغت الصعاب. وعلى العموم، حينما يبدا التفكير في مصير الذات دونهما مبالات بالغير، فإن ذلك يعد مؤشرا على الانحلال التدريجي للتركيب النفسي الجمعي وعنوانا على اضمحلال الروابط الوجدانية التي ظلت تلعب دور صمام امان نفسي ضد الأخطار المحدقة بالجمهور.

يباشر س. فرويد دراسة اوجه الشبه بين الجمهور النفسي والعشيرة البدائية، وهي اوجه سبق ان تناولها لوبون باقتضاب ملحوظ. فالإنسان في الأصل، لم يكن حيوانا قطيعيا كما يعتقد تروتر، ولكنه كان حيوانا في عشيرة يقودها زعيم. وتمثل منظومات الدين المجسدة جنيالوجيا في الطوطمية تعبيرا مؤسساتيا على قتل الزعيم وبيانا من اجل الانتقال من العشيرة الأبوية إلى العشيرة الأخوية حيث المساواة في الوضع الاجتماعي والحقوقي. ويزعم التحليل النفسي بوجود رواسب نفسية بدائية تعود إلى عهود سحيقة من تاريخ الانسانية. فمميزات الجمهور النفسي التي ارقت صاحب علم نفس الجموع تعود في نظر فرويد إلى سيكولوجيا العشيرة البدائية (زوال الشخصية الواعية، توجه عواطف الجميع في اتجاه واحد وغلبة العاطفة والميل إلى تحقيق الترات فور انبجاسها). يقول فرويد :"هكذا يظهر لنا الجمهور وكأنه إحياء للعشيرة البدائية.

فكما ان الإنسان البدائي لا يزال على قيد الحياة في كل فرد، فإن كل تجمع بشرى قادر على بعث خصائص العشيرة البدائية " .

لقد كان افراد الجمهور البدائي مرتبطين بعضهم بعضا. اما زعيم العشيرة فقد ظل دائما حرا و لم يكن اناه مقيدا بالإكراهات الليبدوية. كان تقديره للآخرين رهينا بمدى مساهمتهم في إشباع نزواته، وكان يفرض التعفف على الجميع ويمنعهم من إشباع غرائزهم. وقد ادى بهم ذلك إلى تحويل طاقاتهم الجنسية إلى مواضيع اخرى .

كان هناك تناقض سافر بين السيكولوجيا الفردية للزعيم، الذى ظل اناه يطال كل شيء في نرجسية مفرطة والسيكولوجيا الجمعية للجمهور. وحين يفارق الحياة، يجرى استبداله بأحد الأبناء ليستمر الإكراه النفسي تحت وطأة النرجسية الجديدة. وقد استمر الوضع على هذا المنوال حتى استطاع الأبناء التخلص من ذلك الأب. وتحت تأثير الشعور بالذنب، حاولوا الاستعاضة عن العشيرة الأبوية بالعشيرة الأخوية الطوطمية، حيث الحقوق المتماثلة والتزام جمعي بحفظ ذكرى جريمة القتل والتكفير عنها بتحريمها ومنع زواج المحارم .

إن تشكل الجمهور النفسي والروابط الوجدانية التي تخترقه من اقصاه إلى ادناه يرتبط، من زاوية السيكولوجيا السياسة، بذلك الكبت النفسي الذى يفرضه الزعيم. فالدوافع الايروسية المكفوفة والغرائز المكبوتة، هي الأصل في البناء النفسي للجماهير.

بعد هذا العرض السريع لأطروحات كل من س. فرويد و لوبون، يحق للقارئ ان يتساءل عن موقع نفسية الجماهير الثائرة في شمال إفريقيا وبعض دول الشرق الأوسط، من المقولات السيكولوجية السالفة الذكر.

لا شك ان المؤلفات المرتبطة بعلم النفس الكلاسيكي لازالت تلامس الإشكالات الحقيقية للجماهير، خاصة وان عصر الديمقراطية لا يجد له مفرا من صعودها المثير. بل يمكن الجزم مع عالم النفس الاجتماعي س .موسكوفشي في كتابه الموسوم بعصر الجماهير، بأن الظاهرة الاجتماعية المرافقة لإيديولوجيا الديمقراطية تتمثل في القيمة النظرية والعملية التي اضحت الحشود تتمتع بها في الاعتبارات السياسية والإيديولوجية. وقد ادت الأفكار حول الحرية في عصر التنوير وكذا الأفكار الاشتراكية وظيفة مهمة في صعود هذه الظاهرة في مطلع القرن العشرين.

من حق القارئ ان يتساءل حول مدى انضباط السلوك الثوري في البلدان السالفة الذكر للخطاطة التي اتفق بشأنها كل من فرويد ولوبون على مستوى الوصف واختلفوا على مستوى التفسير. فهل كان السلوك الثوري تعبيرا عن العاطفة المفرطة وانخفاضا في المستوى الفكري لدى الأفراد المنخرطين في الجمهور؟ وهل اتى هؤلاء على اعمال من الهدم والتدمير يندى لها الجبين؟

وهل انصاع الأفراد بسهولة لغرائزهم من اجل ارتكاب اعمال عنيفة، ووحشية وإجرامية ؟ وهل كان في تلك الأعمال نوع من التهديد الحضاري ؟ واخيرا هل فقدت الجماهير الثائرة اخلاقياتها على إثر تلاشي الشخصية الواعية واستيقاظ الغرائز النائمة في اعماق كل فرد؟

لا شك ان التحولات السيكولوجية التي تحدث عنها فرويد ولوبون تظل ضرورية ليس فقط للانتقال من الوعي إلى اللاوعي، وهو انتقال مصاحب بالانفعالية المفرطة، ولكنها تحولات ضرورية ايضا لاندلاع الثورة التي حددناها مسبقا كلحظة سيكولوجية. فلا يمكن للتجمعات مهما بلغ عدد افرادها، ان تتحول إلى جمهور ثوري دون ان يتخلى اعضاؤها عن شخصياتهم الواعية وينصهروا مقابل ذلك، في التركيب النفسي الجديد الذى حدده لوبون بأنه من طبيعة كيميائية.

أبانت الجماهير الثائرة في ميدان التحرير وغيره، حسا عاليا في تدبير السلوك الثوري، واظهروا حلما لا نظير له في التعامل مع الاستفزازات المناوئة، كما اظهروا اخلاقا عالية في الإخاء والتضامن في كل من مصر وليبيا واليمن وتونس. لم يتحول الجمهور الثوري إلى اداة بشرية وطاقة سيكولوجية مدمرة .

وبصرف النظر عن بعض الأحداث الجزئية العنيفة في طنجة والقاهرة وصنعاء، فقد شكل السلوك الثوري استثناء لم يلامسه علم النفس الكلاسيكي سوى على سبيل الاستثناء. صحيح ان المجريات السيكولوجية للثورة قد بقيت إلى حد ما وفية لقانون الوحدة العقلية لصاحب علم نفس الجموع، وهو القانون الذى صادق عليه فرويد وبحث عن تفسير الغازه في عمق الطاقة الايروسية، ولكن الجانب المرتبط بالأحكام القيمية حول وحشية الجمهور وعدم مسؤوليته قد تم تفنيده من طرف الوقائع الثورية. فقد نصبت الجماهير نفسها كمدافعة عن الثروات المادية والرمزية لبلدانها. ويبدو ان عاملين ساهما بشكل كبير في هذه التوجهات السيكولوجية.

وإذا كان العامل الأول يتمحور حول طبيعة الملمح (Profil) الملازم للفئات الاجتماعية القائدة للثورة، وهو ملمح يتجسد بالخصوص في الشباب المتعلم والطموح الذى سدت امامه فرص العيش اللائق والحياة الكريمة. فإن العامل الثاني يتعلق بالتنظيم المحكم لمسارات السلوك الثوري. وفي هذا الإطار، لابد من الإشارة إلى دور شبكات التواصل الاجتماعي ليس فقط في إنشاء جمهور نفسي افتراضي، ولكن ايضا في التدبير الزماني والمجالي للتجمعات الثورية.

لن نتحدث هنا عن لبنات تنظيم العمل الثوري، فذلك موضوع ينتمي إلى سوسيولوجيا التنظيمات الثورية، كما ان ملامستها تتطلب مصاحبة إمبريقية يقظة، ولكن سوف احاول أن ابحث في الفكر السيكولوجي عن قيمة التنظيم في الرقي بالمستوى الفكري للجماهير من اجل تحقيق مآثرها الكبرى وقضاياها المثالية. يقول س. فرويد: يشتمل الجمهور على سمات من بينها انحطاط النشاط

الفكري، ودرجة مشتطة من العاطفة، وعجز عن الاعتدال وعن ضبط النفس، وميل إلى تجاوز الحدود كافة في التظاهرات العاطفية. .. . وجميع هذه السمات تمثل بلا ادنى شك نكوصا في النشاط النفسي نحو طور سابق لا يدهشنا ان نلفيه لدى الطفل ولدى المتوحش.

ومثل هذا النكوص يميز بوجه خاص الجماهير العادية، بينما تتقلص هده السمات النكوصية لدى الجماهير المتصفة بدرجة متقدمة من التنظيم. " س. فرويد، ص 100 .

اما بالنسبة للوبون، فإن الجماهير قادرة ايضا على افعال تضحية ونزاهة ارفع بكثير من تلك التي يقدر عليها الفرد الواحد، ولا ينذر ان يتحول ارذل الأوغاد عندما ينصهر في الجمهور إلى مثال للبطولة وتسامي الأخلاق واجتراح المآثر الكبرى. ولا يختلف ماك دوغال في كتابه حول العقل الجماعي عن الآخرين في وصف النشاط النفسي للجماهير؟ فهذه الأخيرة سريعة الانفعال، لا تؤثر فيها سوى الأهواء الفجة والعواطف البسيطة. تستجمع قوتها لارتكاب كل المساوئ.

ويقصد دوغال بهذا الكلام تلك الحشود غير المنظمة والتي يعارضها بالجماهير المتمتعة بالتنظيم الأعلى. ويطرح المؤلف بعض الشروط للارتقاء بالسمات الفكرية والخصائص السيكولوجية التي يفقدها الأفراد عند انصهارهم في صلب الجمهور. ومن بين هذه الشروط : توفر الاستمرارية في تركيب الجمهور وتمتعه بدرجة معينة من التنظيم (تخصص الأنشطة وتمايزها) وكذا وجود تصور لدى الأفراد المنخرطين في الجمهور، حول وظيفة هذا الأخير ونشاطاته ومطالبه.

لنعد الآن إلى الثورة في جاهزيتها التي اسفرت عن قتل الزعيم وإزاحته من موقع الأبوة التي كانت تسمح له بالاستحواذ ليس فقط على خيرات الاقتصاد والسياسة، ولكن ايضا على خيرات الاجتماع من جنس وجمال. ولا شك ان قصص المجون والهتك التي تسوقها الصحافة بشأن الزعيم العربي المخلوع او المقتول، ترجع بنا إلى تاريخ ذلك الفحل الذى كان يستمتع بالنساء في العشيرة البدائية.

تحدثنا فيما سلف عن سيكولوجيا الأب ودورها في نشأة السيكولوجيا الجمعية، ولكن يجدر بنا أن نقف وقفة تأمل عند واقعة قتل الأب. فقبل ان يلفظ انفاسه الأخيرة، صرخ مستجديا: ابوكم، ابوكم. لقد كان العقيد يعرف تماما لماذا تنافقه الجماهير وكان يعلم ايضا انها لا ترحم. وقد صور ذلك في قصته المعروفة " الفرار إلى جهنم " حيث يتحدث فيها عن الزعيم في مواجهة "العقل الجمعي، ، او (عقلية القطيع)، وعن البطل الذى يحب "حرية الجموع، وانطلاقها بلا سيد وقد كسرت اصفادها" ولكنه "كم يخشاها ويتوجس منها" لأنها "كم هي عطوفة في لحظة السرور، فتحمل ابناءها على اعناقها، فقد حملت هانيبال، وباركليز وسافونارولا وداونتسون وروبسبير وموسيليني ونيكسون. . وكم هي قاسية في لحظة الغضب، فتآمرت على هانيبال وجرعته السم، واحرقت سافونارولا على السفود،

وقدمت بطلها "داونتون" على المقصلة، وحطمت فكي روبسبير. . وجرجرت جثة موسيليني في الشوارع. . وتفت على وجه نيكسون وهو يغادر البيت الأبيض بعد ان ادخلته فيه وهي تصفق ". وفي سياق آخر، قال الزعيم في لحظة ضعف:

فهملكم فهمتكم، وكذلك قال فرعون مصر :"لم اسع يوما إلى سلطة زائفة. . ." ولكن الأوان فات، فقد ضاقت صدور الجماهير وحصلت الواقعة : الخلع او القتل. وهما بالنسبة للأب سيان.

رغم اختلاف العبارات الملفوظة، فإنها كانت تنضح من نفس البنية السيكولوجية : إنها البنية التي تذكر بموقع الأب ليس فقط في الواقع، ولكن في الأجهزة النفسية التي يحملها كل منا. لم يتمتع الزعيم العربي بتلك الشجاعة التي طالما ميزته في الأيام الخوالي وهو يعاقب المارقين من ابنائه. لقد كان مخطئا في التماس العفو من جماهير خرج فيها المكبوت السياسي من عقاله وكان مغفلا بالتذكير بالأبوة في لحظة سيكولوجية يسعى الجميع إلى تحطيمها. لقد نسي الزعيم بأن الأبوة، على نقيض الأمومة، ليست من طبيعة بيولوجية ولكنها مؤسساتية وسياسية. وبذلك تكون الشفاعة التي يناشدها في ظل الشروط الحالية للاوعي، من خلال التذكير بالوزن الرمزي للأب، غير ذات فائدة .

لقد حطمت الجماهير صولجان الديمقراطية الأبوية، وحين يعود كل فرد إلى شخصيته الواعية ليتأمل ما جرى ويستشرف المستقبل ،سيتراءى له سبيلان :

فإما ان يعوض الأب من جديد ليفرض على الجميع الاقتصاد النفسي ذاته الخاص بالعشيرة الأبوية ويجعل المجتمع برمته في انتظار لحظات دورية من التغيير الاجتماعي. وإما ان يتم الاستعاضة عن العشيرة الأبوية بديمقراطية الحرية والمساواة وانتفاء العلاقات العمودية ذات الطابع البتريركي. آنذاك، سنقول إن الطاقة النفسية الهائلة التي ازاحت التسلط قد اتت اكلها.

ولكن قبل ذلك، سيكون على هذه المجتمعات ان تلاحق عقدة التسلط في كل الزوايا الظاهرة والمظلمة، لتعاود جذريا من خلال آليات التنشئة الاجتماعية، بناء شخصية حرة وواعية تكون جديرة بالرهان الحضاري الذى ينتظرها.

المراجع:

س. فرويد: "علم النفس الجماهير" ترجمة وتقديم ج. طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2006

G. Lebon : «La psychologie des foules » voir: http://classiques.uqac.ca/classiques/le_bon_gustave/psychologie_des_foules_Alcan/foules_alcan.html.

S. Moscovici : «L'age ses foules» Paris, Fayard, 1981.

E. Neveu : «Sociologie des mouvements sociaux » Repères,4 édition, La découverte,2005.

Edward T. Hall: « La dimension cachée « Edition du Seuil, Points Essais, 1978 .